معالم الثقافة الإسلامية في مدينة دمشق: محمل الحج الشامي

الأستاذ رضوان الحجار
باحث في شؤون الحضارة الإسلامية

نتابع في الجزء الثالث من مقالة معالم الثقافة الإسلامية في مدينة دمشق المنشورة في العدد رقم ١٢٣ و ١٢٤ الحديث عما تطويه تلك المدينة من أعماق وأسرار لا يعرفها إلا من أحب هذه المدينة العريقة في الحضارة والموغلة بالتاريخ والثقافة.

وسنتحدث في هذا المقال عن محمل الحج الشامي الشريف والذي اكتسبت بسببه مدينة دمشق لقب «شام شريف»، وحظيت بسببه بمكانة دينية مرموقة بين الأمصار والأقطار.

إنه لا يخفى على أحد أن فريضة الحج هي الركن الخامس من أركان الإسلام، ولقد كان الحج ومازال أحد مظاهر الوحدة الإسلامية، حيث يجتمع على صعيد واحد في عرفات يوم الحج الأكبر المسلمون من مختلف الأقطار والأمصار من مختلف الأعراق والأجناس لباسهم واحد ونداؤهم واحد ((لبيك اللهم لبيك)). يفدون من كل حدب وصوب قاطعين الفيافي والقفار وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق.

لقد كانت الكعبة المشرفة هي أول بيت لله وضع على الأرض لما هبط إليها

سيدنا آدم عليه السلام، ولقد كان الحج هو نداء سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما أمره الله تعالى بأن يؤذن للناس بالحج، وفي الحج كانت وصية رسول الله لأمته من بعده في يوم الجمعة وفي يوم الحج الأكبر وعلى أرض عرفات عندما قال عليه الصلاة والسلام : ((لاترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض، إن دماءكم وأعراضكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت، اللهم فاشهد)).

لقد كان الحجاج تهفو قلوبهم لبلاد الحرمين مهبط وحي نبيهم عليه الصلاة والسلام وقبلة المسلمين عبر التاريخ الإسلامي المديد من أربعة مسارات للقوافل البرية، وهي المحمل الشامي والعراقي والمصري واليمني، ولكن المحمل الرسمي الذي يقوده ممثل السلطان ويحمل فيه كسوة الكعبة الشريفة والحجرة الشريفة كان يطلق عليه المحمل السلطاني، ففي عهد العباسيين كان المحمل السلطاني هو المحمل العراقي، وفي عهد المماليك كان المحمل المصري هو المحمل السلطاني، وفي العهد العثماني كان المحمل الشامي هو المحل السلطاني، وقد كان مركز انطلاقه من مدينة دمشق، حيث كان يتجمع الحجاج فيها مع كل سنة في شهر رمضان وكأنه موعد ثابت، ويملؤون الخانات والزوايا والأزقة والحارات التي كانت فيها مثل خان أسعد باشا في البزورية وخان الحرمين في باب بريد و زاوية الهنود وزاوية الموصلي في السويقة وفي حي الأمين وقرب مزارات ومقامات آل البيت الأطهار والصحابة الكرام في باب صغير وغيرها، وكانوا يفدون من أمصار وأقطار شمال وشرق العالم الإسلامي من البلاد الشامية ومن بلاد الروم كالأناضول والروملي، ومن البلقان كالألبان والبشناق، ومن القوقاز كالشراكس والشيشان والداغستان، ومن العراق كالموصل وبغداد، ومن بلاد الجزيرة كمرعش وحران وأورفه وماردين، ومن بلاد العجم كشيراز وأصبهان والري، ومن بلاد الأكراد كآمد وأربيل، ومن بلاد ماوراء النهرين أو بلاد آسيا الوسطى كسمرقند وطشقند وبخارى، ومن بلاد روسيا مثل تتارستان وبشكيريا واستراخان، ومن بلاد الهند مثل دلهي ولاهور، ومن خراسان مثل طوس وهراة وبلخ ومرو ونيسابور

وغيرها الكثير من الأصقاع والأقطار، كأنها روافد لنهر ينبع في دمشق ويجري زاخراً دافقاً حتى يصب مضيئاً في المسجد الحرام، فقد كان المحمل العراقي في العهد العثماني متوقفاً وأصبحت دمشق مركزاً لتجمع الحجاج من كل هذه الأقاليم الواسعة والشاسعة، وقد اعتاد الحجاج أن يحضروا معهم منتجاتهم المحلية ليبيعوها في أسواق دمشق العامرة، وبذلك كان موسم الحج فترة تزدهر فيه الحركة التجارية في المدينة.

إن أشهر مظاهر المحمل الشامي ما يسمى «السنجق»، والسنجق عبارة عن هيكل خشبي مسجى بقطعة قماش متين مزخرف بالآيات القرآنية والنقوش يوضع بداخله نسخة من القرآن الكريم وكسوة الكعبة الشريفة والحجرة الشريفة، يحمل على جمل قوي[1]، وكانت العادة جارية أن يخرج المحمل الشريف من منطقة السنجقدار في أواخر شهر رمضان فيطاف به في أرجاء المدينة إعلاناً لبدء افتتاح موسم الحج والتهيؤ له، وقد كانت هذه العادة من مراسم وتقاليد المحمل الشامي.

وبهذه المناسبة كانت تفتح مستودعات ومخازن مؤن ولوازم رحلة وقافلة الحج والتي معظمها في منطقة البحصة وذلك للتأهب لتجهيز سفرة الحج، و كان يجري بهذه المناسبة كذلك إخراج مواعين وقراب الزيتون والزيت المدخرة من وقت الحصاد والتي عادة ما كانت تجلب من معاصر (جمع معصرة) منطقة كفرسوسة خاصة لتجهز مع مؤونة وزاد السفرة.

ولأهمية المحمل الشامي كان السلطان العثماني بنفسه يصدر مرسوماً بتعيين أمير للحج، وكان يخصص له عدد من الجنود والمدفعية، وكان يتولى إمرة الحج أحد ولاة الولايات الشامية كنابلس وصيدا وأحيانا يتولها والي دمشق

---

(١) منير كيلاني، محمل الحج الشامي، مطبوعات وزارة الثقافة السورية ٢٠٠٦.

(٢) كان للعثمانيين نظم إدارية لتقسيمات الأقاليم، حيث قسمت الأقاليم لولايات وكل ولاية يرأسها والي يلقب بالباشا، والولاية تقسم لعدد من السناجق يرأسها موظف يلقب بالبيك، والسنجق يقسم لعدد من النواحي يرأسها الآغا، والناحية تقسم لحارات يرأسها المختار، وقد عرفت البلاد الشامية أربع ولايات في العهد العثماني هي دمشق وحلب وطرابلس وصيدا . د/عبد الكريم رافق، المشرق العربي في العهد العثماني،ص٦٨.

بنفسه[٢]، ثم لما كثرت الفتن والقلاقل داخل مدينة دمشق كان يعهد بإمرة الحج إلى قائد عسكري برتبة باشا[٣].

وفي أواسط شوال كان المحمل الشريف يخرج من منطقة السنجقدار يرأسه أمير الحج وفي مقدمته السنجق الذي يحمل الكسوة الشريفة يودعه أعيان البلد من مسؤولين وعلماء ويخرج الأهالي من صغار وكبار لوداع موكب المحمل في مشهد مهيب وكأنه زفة عرس ماراً بالدرويشية ثم السنانية ثم السويقة ثم الميدان حتى محلة البوابة ثم منطقة القدم في ظاهر البلدة.

ويتابع المحمل سيره في مساره التاريخي كما ذكره كبار الراحلة مثل الشيخ عبد الغني النابلسي في كتابه المسمى ((الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز)) فبعد أن يتجاوز المحمل عمران المدينة يمرون بخان دنون (تحريف عامي لكلمة ذي نون) قرب الكسوة ثم مزيريب ثم المفرق ثم الزرقاء ثم البلقاء ثم وادي قطرانه ثم معان ثم تبوك ثم وادي القرى في منطقة العلا وصولاً للمدينة المنورة، وقد كان العثمانيون أقاموا على طول الخط البري قلاعاً وحاميات لتأمين حماية قافلة الحج.

وقد كان لأمير الحج عدة مراسم وتقاليد عليه القيام بها لتأمين رحلة آمنة، فمن مراسم المحمل ما يسمى ب «الصرة» وهو عبارة عن أموال وهدايا كانت ترسل من العاصمة إستانبول وتوكل لموظف يلقب بالصرة أميني وتصرف على أمراء البدو في طريق المحمل الشامي كي يتألف قلوبهم ويمتنعوا عن السطو والتعرض لقافلة المحمل بالسلب والنهب، ومن مهمات أمير الحج كذلك تأمين جاهزية الآبار في الطريق للشرب، وأحياناً كان أمير الحج يعين أميراً للركب مهمته حراسة القافلة.

(٣) عرفت مدينة دمشق خلال العهد العثماني عدة مجموعات أو طوائف عسكرية كانت تشكل فرقاً من الانكشارية، وأهمها اليرلية، قابي قول، دالاتية، مغاربة، تفنكجية، وقد تحولت بعد فقدانها لتقاليد الانضباط العسكري لفرق فوضوية تثير أعمال الشغب والعبث خصوصاً في الأزمنة التي تنتشر فيها الجوائح والمجاعات ويقل القوت والزاد وينتشر الطفر (الفقر والبطالة)، وكذلك وظفهم بعض الولاة كمرتزقة لتصفية خصومهم. د/عبد الكريم رافق، المشرق العربي في العهد العثماني، ص١٨٩.

وجرت العادة أن يدفع نصف مبلغ الصرة في طريق الذهاب ونصفه الآخر في طريق العودة، وهو يتضمن أجرة البدو كأدلاء للقافلة، ولكن غالباً ما كانت القوافل في طريق العودة تتعرض للاعتداء لأن كثيراً ما كان أمراء الحج يمتنعون عن دفع النصف الثاني من الصرة(٤).

ومن مراسيم المحمل ما يدعى بـ«الجردة» وهي قافلة تعد لإمداد ولإسعاف قافلة الحج في طريق العودة تحمل المؤن والأقوات حيث غالباً ما يكون المحمل في طريق العودة قد استنفذ المؤونة واستهلك الأقوات.

وقد ارتبط المحمل الشريف بعدة مهن وحرف كانت شائعة ومنتشرة ثم تعرضت للانقراض والاندثار بعد ذلك مع التحولات التي جلبتها الحداثة ولكن بقيت آثارها في أسماء وكنى بعض العائلات للآن، فمنها مهن مرتبطة بمعدات الركوب، وكانت أفخر وسيلة للركوب ما يسمى بالتخت وهو كوخ يحمل على الجمل، ويليها المحارة وهي محفة توضع على الجمل، وكان المهني الذي يصنعها يدعى «المحايري»، ثم الشباري وهي مثل الصندوق توضع على أقتاب النوق والمطايا، وكان الجمل يحمل اثنين من هذه الشباري، فقد كان الموسر يستأجر التخت ومتوسط الحال يستأجر المحارة والأدنى الشبرية لأنها أقل أدوات الركوب رفاهية وراحة.

ومن مهن الحج «العكام» و«المهتار»، فالعكام هو رجل قوي يتولى سوق إبل المحمل، والمهتار هو رجل يقوم بنصب الخيام ثم نقضها وفكها أثناء فترات الاستراحة في رحلة المحمل.

ومنها «الجوخدار» أو الجوقدار أحد مرافقي أمير الحج ينفصل عن ركب المحمل ويسبقه بحوالي سبعة أيام ليبشر الأهالي بقرب قدوم المحمل أو لطلب الإغاثة والنجدة إن كانت القافلة تعرضت للعدوان أو للكوارث البيئية كالسيول.

(٤) نود الإشارة للتمييز بين الصرة والخوة، فالخوة هي ضريبة مالية كانت تدفعها القبائل الضعيفة للقبائل القوية، ففي حالة الخصب كانت تدفع القبائل الصغيرة الخوة مقابل الرعي في حمى القبائل القوية، وفي حالة الجدب كانت تكثر الغارات بين البدو فإذا تغلبت القبائل الصغيرة فإنها تطرد القبائل الأخرى من الحمى وتجبرها على الرحيل، وهذا يعطينا فكرة على قسوة البيئة البدوية وتأثرها بالمناخ، أما الصرة فكما ذكرنا.

لقد كان المحمل في طريقه يواجه مخاطر جمة وكان أخطرها على الإطلاق اعتداءات بعض البدو والعربان الذين كانوا لا يتورعون عن مهاجمة قوافل المحمل لا سيما في حالة الوهن والضعف التي تمر بها السلطة المركزية عندما تكون الدولة العثمانية مشغولة بإخماد الفتن والقلاقل فلا تصرف لأمراء البدو الصرة، وفي فترات انتشار القحط والجدب، وكان هؤلاء البدو والعربان المنتشرون في طول درب المحمل أبعد ما يكون عن حياة التحضر والمدنية، قد جعلتهم حياة الصحاري قساة جفاة فكانوا لا يأبهون ولا يتورعون عن سفك دماء الأبرياء حتى لو كانوا حجاجاً قاصدي الأراضي المقدسة، وقد قال رسول الله: «من خرج من أمتي على أمتي يضرب برها بفاجرها ولا يتحاشى مؤمنها ولا يفي بذي عهد فليس مني»، وقال رسول الله: «لايزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً».

أما أخطر اعتداء عرفه المحمل الشريف ما كان في سنة ١٧٥٧ بعد عزل أسعد باشا من ولايته عن دمشق، وكانت المدينة قد شهدت فترة استقرار في عهده، فقد تعرض المحمل لنكبة مروعة كانت علامة فارقة في تاريخ حملات المحمل، فقد تعرضت قافلة المحمل للاعتداء في طريق العودة قرب بادية تبوك، وأما قافلة الجردة فقد هوجمت على مقربة من بادية معان، ولم ينج منها إلا المخبر، وهذا يعطينا صورة تاريخية عن مشقة وأهوال رحلة الحج في ذلك الوقت(٥).

لقد كان سفر البر يستغرق قرابة أربعين يوماً من دمشق ليصل للمدينة المنورة، ثم عشرة أيام أخر للوصول لمكة المكرمة، ولكن بعد افتتاح قناة السويس في ١٨٦٩ نشأ الدرب البحري عن طريق ميناء جدة البحري، ولقد كان افتتاح خط الحجاز الحديدي في ١٩٠٨ في عهد السلطان عبد الحميد

(٥) لقد ذكر هذه الحادثة بالتفصيل المؤرخ الشعبي الحلاق البديري، ولكن فظاعة هذه الحادثة لها أسباب موضوعية لم يذكرها البديري، فالوالي أسعد باشا كانت له صلات قوية مع الأمراء المحليين في بلاد الشام مثل الشهابيين أمراء وادي التيم وضاهر العمر أمير الزيادنة أو عرب بني زيدان في طبرية، ومع عرب بني صخر وبني حسن في البلقاء وغيرهم، وقد وظف تلك الصلات في تأمين سلامة الحج عندما كان والياً، ولكن يبدو خلعه وهو الوالي القوي ترك فراغاً لم تحاول الدولة العثمانية سده.

الثانـي المناسـبة التي أنهت رحلة القوافل البرية للمحمل الشـامي، ويعتبر خط الحجـاز الحديدي من أهم إصلاحات السـلطان عبد الحميـد الثاني في مواجهة تحديات خطر تعرض دولته للتمزق، فقد اسـتغرق إنشاؤه قرابة ثماني سنوات منـذ ١٩٠١ وهـو عمل وقفي إذ تم تمويله من أموال التبرعات التي جمعت من سـائر بلـدان وأمصار العالم الإسـلامي حتى إن منها مـا كان بعيد الآفاق مثل التبرعـات التي وصلـت من الهند، وقـد بلغ طوله ما يقـارب ١٣٠٠كم. وهو يربط دمشـق بالمدينة المنورة، وقد صارت المدة التي يسـتغرقها المسـافرون مـن دمشـق إلـى المدينة المنـورة لا تتجاوز خمسـة أيـام بدل أربعيـن يوماً، وقـد خدم هـذا الخط كذلك الحجـاج المصرين الذين كانوا يقدمون بالسـفن من الإسـكندرية إلـى حيفا ومنها بالسـكة الحديـدة للمدينة المنورة، وقـد زاد بهذا العمل المبارك أعداد الحجاج أضعافاً مضاعفة، فعلى سـبيل المثال قد زاد عدد حجاج دمشق وحدهم من ألف حاج إلى ما يقارب عشرين لثلاثين ألفاً تقريباً[٦]. لقد سـاهم خط الحجاز الحديـدي في التطور الاقتصادي وليـس فقط في خدمة سـفر الحج، فقد كان للخط الحديدي فـرع من محطة درعا إلى ميناء حيفا، وقد سـاهم ذلك في تطور الحركة التجارية وازدهار حيفا كميناء تجاري في شـرق المتوسط وقتذاك.

لقـد كان إنجاز الخط الحديدي جهداً شـاقاً، فكانت السـكة تمر بتضاريس وأودية وعرة لذا تم إنشـاء حوالي عشـرين ألف جسر بقناطر حجرية في وسط صحـراء لاهبة الحـرارة والتي مازالـت آثارها باقية لليوم وبمسـاعدة وخبرة مهندسـين ألمان، كما تم إنشـاء محطات استراحة مزودة بخزانات الماء لتأمين سـلامة الحجاج من العطش، وقد اسـتمر العمل به جارياً قرابة ثماني سـنوات حتـى سـنة ١٩١٦ حيث تعرض للتخريب في الحـرب العالمية الأولى على يد الحملـة التـي كان يديرها المستشـرق الملقب ب لورنس العرب الذي أرسـلته القوات الاسـتعمارية للمنطقة لإثارة الصراع بين القوميات وعلى الأخص بين

(٦) محمد حرب، السلطان عبد الحميد، دار القلم بدمشق، ص٢١٧.

القومية العربية والقومية الطورانية تنفيذاً لأجندة اتفاقية سايكس بيكو السرية وقتها [٧].

لقد ظهرت القومية الطورانية بسبب نشاط الجمعيات الماسونية التي تدعو للإلحاد ومعاداة الأديان والإباحية والانحلال الأخلاقي وإبادة الشعوب بدعوى الحرية مثل تنظيم جماعة الاتحاد والترقي الذي دبر للإطاحة بالسلطان عبد الحميد في ١٩٠٩ بسبب موقفه الراسخ في رفضه التجاوب مع الإغراءات التي عرضت عليه من قبل الصهيونية في سد ديون الدولة العثمانية الباهظة مقابل منح المستوطنين اليهود أراض لهم في فلسطين، فقد كان السلطان عبد الحميد يعتقد حاكمية الشرع فيها بأنها أرض وقف للمسلمين وليس أرضاً يملكها هو أو أجداده حتى يملك التصرف بها.

ولقد فرضت جماعة الاتحاد والترقي بعد نجاح إنقلابها سياسة التتريك على الشعوب العربية بالإكراه والقهر فدفعتهم للتمرد والثورة، وقد كانت جماعة الاتحاديين تتبنى الأفكار الغربية المضادة للإسلام ولكنها استغلت بعض شعارات الدين عند مخاطبتها للناس للتأثير عليهم والتحريض ضد السلطان عبد الحميد[٨].

لقد تعايشت في منطقة الشرق الأوسط قوميات عديدة وأجناس متنوعة طوال عقود وقرون بسلام وتسامح في ظل الإسلام الحنيف، لأن الإسلام نبذ العصبيات القبلية والقومية والتي هي من دعوى الجاهلية فكما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام:((كلكم من آدم وآدم من تراب، لا فخر لعربي على أعجمي، ولا أعجمي على عربي إلا بالتقوى))، وقال عليه الصلاة والسلام: ((إن الله عز وجل قد أذهب عنكم حمية الجاهلية وفخرها بالآباء، فالناس رجلان مؤمن تقي، وفاجر شقي)).

(٧) نود الإشارة أن المفكر العربي إدوار سعيد في كتابه القيم (الاستشراق) أجرى دراسة عميقة لمفهوم الاستشراق على أساس تحليلي للفكر والوعي التي تنتجها العلاقة بين المعرفة والسلطة وخلص إلى نتيجة أن الاستشراق الغربي توصل في أبحاثه لشرق تخيلي لا يمثل الواقع الحقيقي، فالاستشراق نظر للشرق على أنه ثروات وموارد وآثار وديمغرافية ونظر للتنوع الثقافي فيه لكونه مهد الحضارات على أنه مجتمع فسيفسائي قابل للتفكك والانقسام، وهي رؤية معرفية تخيلية للشرق متولدة من الرغبات الاستعمارية، فلا عجب أن يكون أشهر من هاجم هذه الدراسة المستشرق برنارد لويس أحد أبرز منظري مشروع الشرق الأوسط الجديد.

(٨) محمد حرب، السلطان عبد الحميد، دار القلم بدمشق، ص٢٨٢.

وللأسف عندما سادت تلك العصبيات كثقافة اجتماعية في الجاهلية الأولى أدت لإنتاج حروب طاحنة وأشعلت صراعات دامية كحرب داحس والغبراء، وحرب البسوس، وحرب الفجار بين قريش وهوازن، وحرب بعاث بين الأوس والخزرج، والتي أدت للثراء الفاحش لطواغيت يهود يثرب كبني قينقاع وبني النضير مما تحصده ديون الحرب التي كان يقرضونها بالربا للأخوة الأعداء.

وقد أشار القرآن الكريم لمساوئ العصبيات والنزعات والنعرات الشعوبية عندما وصفها بحمية الجاهلية في قوله تعالى:

{إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}. [الفتح-٢٦].

لقد قام السلطان عبد الحميد الثاني بجملة إصلاحات لمكافحة مظاهر التخلف من الجهل والأمية في وسط البدو والعربان الذين كانوا ينزعون للتمرد بسبب خشونة طباعهم البعيدة عن حياة التحضر وأهمها إنشاء مدرسة العشائر والتي ضمت إليها نخبة من أبناء العشائر في المنطقة العربية لنشر التعليم والثقافة المدنية بين أبنائها، وإقامة مشاريع الاستصلاح الزراعي للأراضي القاحلة في البادية(٩).

ومما يذكر من إصلاحات السلطان عبد الحميد لمدينة دمشق قيام حسين ناظم باشا والي دمشق في عهده بإنشاء مدرسة التمريض والتي تحولت بعد ذلك للجامعة السورية، وكذلك إنشاء أسبلة سقاية في دمشق من مياه الفيجة بعدما كان السكان يشربون من مياه النهر الملوثة.

لقد كان من العادات الدمشقية الأصلية هي الاحتفالات التي يستقبل بها الحجاج العائدون من أداء المناسك وزيارة الروضة الشريفة من عراضة ومولد وزينة، وهذا يدل على حفاوة هذه المناسبة في قلوب الدمشقيين، وقد كان احتفال المولد النبوي الشريف سابقاً ومازال عند الأسر الدمشقية العريقة والمحافظة على أصالة تراثها من أهم أشكال الفلكلور والعادات الاجتماعية التي تدل على أصالة التراث الدمشقي، وهو يقام في عدة مناسبات أشهرها مناسبة

(٩) محمد حرب، السلطان عبد الحميد، دار القلم بدمشق، ص٢٠٢.

كتب الكتاب (إشهار عقد الزواج) ومناسبة المباركة بالمولود والعودة من الحج، ويتم افتتاحها عادة بتلاوة لآيات قرآنية ثم وصلات من الإنشاد بالمديح النبوي بدقات المزهر أو الدف، وتوزيع صرر الملبس (اللوز المحلى بالسكر) وأحياناً بتوزيع البوظه غالباً بالصيف، أو زبدية المحلاية (حليب مجمد بالنشا) غالباً في الشتاء، وهناك العراضة برقصات السيف والترس وبأهازيج شعبية تمدح النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام وزوار الحرمين.

لقد نشأت عادة الاحتفال بالمولد في زمن الأيوبيين الذين عرف في زمانهم إحياء الوازع الديني، وقد ساعدت الثقافة الصوفية عند العثمانيين على انتشار عادة المولد وعادات اجتماعية أخرى مثل التهليلة في التماسي ومجالس الذكر في الزوايا والربط وإنشاد القصائد الصوفية التراثية، مثل بردة البوصيري ومنظومة مولد البرزنجي، وقصيدة الاستغاثة بالأسماء الحسنى للشيخ يوسف النبهاني، ولقد كان من آداب هذه المجالس أن يجتمع الأمراء والفقراء والموسرون والمعدمون سوية، فهذه المجالس تعلم الناس خلق التواضع فالناس سواسية كأسنان المشط، ولكن تعرضت بعض تلك العادات للزوال أو التراجع مع موجة الحداثة والعولمة فبدأت بالانتشار حفلات الأغاني الصاخبة بدل حفلة المولد في مناسبة الأعراس، والحلوى الغربية بدل الحلوى الشرقية، وكان لظهور بعض الحركات المتشددة المتأثرة ببيئة الصحراء وثقافتها أثراً في تعرض هذه العادات الأصيلة وما فيها من أصالة وروحانية للتراجع والزوال لأنها تعتبر عادة المولد الكريمة من البدع والزندقة.

بالمقابل شاعت عادات وأنماط تفكير مخالفة للشرع الحنيف بسبب انتشار الجهل والأمية مثل انتشار ثقافة التواكل والرهبانية والسلبية عند بعض أدعياء الصوفية، والتعصب المذهبي والتقليد الأعمى والجمود الفقهي فيرى مذهبه الفقهي أو شيخه الذي يقلده هو الحق وما عداه باطل، فللأمس القريب كان في الجامع الأموي أربع محاريب تقام فيه أربع جماعات للفريضة الواحدة، وقد قام بعض المصلحين كالشيخ أحمد كفتارو رحمه الله بإبطال هذه العادة المذمومة وتوحيد المسلمين في صلاة الجماعة، فلماذا اختلاف المسلمين في صلواتهم مادامت عقيدتهم وقبلتهم وقرآنهم وحجهم واحد؟؟.